الأدب بين الخاصة والعامة

لامرتين ورينيه جارد

للسيد اسكندر كرباج

تابع لما نشر فى العدد الماضى

يأسف لامرتين إذ يرى اليأس مخيماً على وجه رينيه ، والأسى يغمر نفسها التوّاقة الى إرواء هذا الظمأ الطبيعى فى الناس من ينابيع الحبّ والمعرفة . ثم يقول لها : هل وجدت يا رينيه بين كل ما ذكرت لك من الكتب ما يوافق الطبقات العاملة مثلك ؟

فتجيبه : صفحات قليلة يا سيدى ، لأن كل ما فى لغتنا كُتب لكم ، لذلك يجب أن يخلق الله من يكتب لنا

فيقول : لقد حان الوقت الذى يجب أن يُكتب فيه لكم يا رينيه ، لأن ارتقاء عقليّة الشعب وشدّة ميله إلى المطالعة سيحملان الكثيرين من الأدباء عَلَى تخصيص الوقت الذى يصرفونه فى أماكن اللهو لوضع الكتب الشعبية . وفضلاً عن ذلك فالارتياح العام إلى اشتداد حركة الصناعة والعمل فى البلاد سيدفع الحكومة إلى التوسُّع فى نشر الاصلاح ودعوة كل من أفراد الأمة إلى القيام بقسطه من خدمتها . وهذا يضاعف عمل الفكر فى كل الطبقات الاجتماعية ؛ وبما أن الكتب هى أدوات هذا العمل فسيوضع منها للعمّال ما يوافق أيديهم

وقد ازداد عدد الكتّاب على ما كان عليه فى الماضى زيادة كبرى ، لأن قسماً كبيراً من النفوس الهاجعة استيقظ بعد الثورة واندفع إلى ساحة العمل والانتاج ، ولأن خريجى المدارس العالية تحوّلوا عن خدمة الامبراطورية والدين إلى التوظُّف فى دوائر الحكومة والاشتغال بالأدب ، فكثر عدد الكتّاب وأصبح ما ينشر فى السياسة والشعر والأدب والاجتماع يومياً كافياً لوضع المجلدات الضخمة ، وتزاحمُ هذا العدد الكبير من الأدباء على أبواب الشهرة يحول دون معرفة المباقرة الحقيقيين

لم يعمل رأس الانسان وقلبه فيما غير من عصور الانسانية ما يعملانه فى هذا العصر ، فهما كناية عن معملين للأدب دائمى الحركة ، وهذا العمل المتواصل يبحث عن وجهة يتصرف إليها فلا يجد ، لذلك نراه قلقاً مضطرباً . غير أن الطبيعة التى أوجدت التبادل بين الأعمال والحاجات ستوجد لهذا العمل حاجته ، وهذه الحاجة هى وضع الكتب للجمهور

ثق يا رينيه أن عهد الأدب الشعبى قد دنا ، وأعنى بالأدب الشعبى الأدب السليم المكتمل ، لأنى أفهم من كلمة شعب ما يفهمه الله والفلسفة ، أى القسم الأكبر والأهم من البشرية لا ما يفهمه المتطرفون ؛ وإذا لم يطرأ على الأنظمة الحديثة فى هذه السنوات العشر ما يعرقل سيرها ، أو يحولها الى طغيان مؤقت ، فسيكون للشعب مكتبته وعلومه وفلسفته وروايته وشعره وأدبه وتاريخه وفنه

فتسأله رينيه دَهِشة : ومن يضع لنا كل ذلك ؟

فيجيبها : الكبار بين العلماء والشعراء ، فكما أن تربية الأمراء والتحدث إلى الملوك والتقرب من رجال البلاط كانت إلى الأمس القريب تعدُّ شرفاً كبيراً فان تثقيف الصغار والتحدُّث إلى الوضعاء وخدمة الطبقات العاملة ستعد فى الغد القريب لا شرفاً كبيراً فحسب ، بل فضيلة عظمى ، وهكذا يتحول مجد الكتّاب من القصور الى الأكواخ ومن المواصم الى القرى . وبما أن العبقرية تتجه بطبيعتها نحو المجد ، فالمجد سيكون ترديد اسم الكاتب فى أفواه الملايين من النساء والرجال صغاراً وكباراً . لماذا يؤلف الأديب ويكتب وينظم ؟ ليُقرأ ويُدرك ويُشارك فى شعوره وتأثره ، ويُحب ويُكرم ويُطرى ، أفليس الأفضل للشاعر أن تنقش منظوماته على صفحات قلوب أربعين مليوناً من أن تُصفّ على رفوف ستة آلاف مكتبة ؟ أو لا يفضل الكاتب أن ينتسب الى هذه الأسرة الكبرى المؤلفة من أربعين مليوناً ، يعيش فى أفكارها وتذكاراتها ويقاسمها عواطفها وميولها ، من أن يكون عضواً فى مجمع علمى لا يجاوز عدد أعضائه الأربعين ؟ فما هو رأيك يا رينيه ؟ ماذا تؤثرين : أن تتردّد منظوماتك فى أفواه الملايين من الصغار ، ينشدونها فى نهاية كل صلاة أو فى أحضان أمهاتهم ، أو أن تطبع وتجلّد بدقّة وجمال ، وتوضع فى مكتبة بعض هواة الشعر ؟

فتجيبه : آه يا سيدى ! أؤثر أن تردد فى أفواه الصغار والوضعاء لأنها تكون طبعة شعبية تختلج بالحياة ، فالمجد الذى لا يدعمه الود هو حبة لا تنبت ، ونور لا يدفىء

وأراد لامرتين أن يذهب الى أبعد من ذلك فى معرفة حقيقة ذوق الشعب وميله الأدبى بواسطة هذه الفتاة التى نشأت بين

الخدم وتعيش مع العمال فاستأنف قائلاً : أنت يا ربنيه تعرفين أصناف الكتب التي توافق أهل طبقتك وتنطبق على عاداتهم وميولهم ، فما هو الكتاب الذي يجب أن يؤلف أولاً للذين لم يقرأوا شيئاً أو أنهم قرأوا قليلاً ؟

فتجيبه : لا رأي لي في ذلك إذ لا يتذوق الأدب إلا من كان ثقيفاً

— ولكن لا بأس أن تجاوبني عن نفسك ، أي نوع من الأدب كان بامكانه أن يستهويك ويؤثر في نفسك قبل أن تتيسر لك المطالعة ؟ أهو الفلسفة الدينية والوجدانية التي تصلح لأن تكون دستوراً لأفكار البشر وانجيلاً يعبر بأمثال قصيرة سامية وجلية كأشعة الشمس ، عن مبادئ العلوم الانسانية الكبرى وفضائلها المكملة بالذكاء والمعرفة على ممر العصور ؟

— هذا لا بأس به ، غير أن برودة الأمثال لا توافق حرارة قلوبنا ، فهي كناية عن أفكار تشع فيما نقرأه ، ولكنها فوق مستوانا العقلي

هل يرضيك تاريخ عام جلي العبارة ، رائق الأسلوب ، ذو فروع عديدة كأغصان هذه الشجرة التي تسمعنا ، تخرج فيها الأصول من الأرض ، والجذع من الأصول ، والأوراق من الأغصان ، بحيث تستطيع أن ترافق بنظرك نشوء كل هذه الأسرة البشرية الكبرى من أقدم الأزمنة إلى اليوم بما رافقها من ارتقاء وانحطاط ، ومن سلالات ظهرت ثم انقرضت مع أفكارها وأديانها وأنظمتها وفنونها وأعمالها ؟

— هذا لا يرضي إلا الشبان المتعلمين والشيوخ الميالين الى أشياء الماضي ، أما سواهم من النساء والعذارى والأولاد فلا يميلون إلى مثل هذا الموضوع لارتفاعه عنهم ، فهو عر أمامنا كالسيل العظيم يبهر عيوننا ويفرق أرواحنا ، لذلك نفضل عليه وشلة من ينبوع قريب . ان العظيم عظيم ، ولكنه غامض كالسماء لا يرى فيها سوى النجوم

— ما قولك في كتاب يفسر كل العلوم والفنون بطريقة سهلة بسيطة تقف على كل ما اكتشفه الانسان واخترعه وتصوره وحسنه في كل أنواع الحرف والصناعات وغير ذلك مما يريك الحقيقة ويهدم كل ما قام حول العجائب الطبيعية والاصطناعية المنسوبة الى الراقيات من الأفكار الكاذبة ؟

— لا نزال في مكاننا يا سيدي ، فهذا الموضوع لا يهم إلا المثقفين وما أقلهم بيننا وأقصر وقتهم لمطالعته ، وعدا ذلك فما يبقى في النفس بعد مطالعة كل ذلك ؟ غيمة من الألفاظ والخطو والأشياء والحوادث والأدوات وغيرها مما يبلبل أرواحنا يكفينا ما نعرفه من أسرار حرفنا فلا حاجة بنا الى معرفة أسرار حرف الغير !

— وما رأيك في القصائد والملاحم ، كقصائد وملاحم هوميروس وفرجيليوس وطاسو تصف مواكب الأبطال وفتوحات الشعوب وما قامت بها من الحضارات ودكته مواطن الحصون وأحرقته من المدن وأفنته من الجيوش ؟

— لقد مضت نشوة تلك الأيام ياسيدي . أيام اليونان والرومان حيث لم يكن للأمم غير فكرة الافتتال والتطاحن والاعتقاد بكل أشكال الخرافات وبآلهة ومخلوقات تنزل من السماء وتحارب مع هؤلاء ضد أولئك ، فالشعب اليوم لا يثق كثيراً بخيال الشعراء ، ويريد منهم أن ينشدوا له الحقيقة والفضيلة والصلاح وإلا تخلف عن سماعهم ومطالعة منظوماتهم

— وفي رواية لطيفة رقيقة تتضمن وصف حوادث رجال ونساء يتحابون ويتخاطبون ويتراسلون، ويتواشون ويتخاصمون ثم يعودون فيتصالحون ويتشاكون ، وبعد كثير من المغامرات يتزاوجون ليعيشوا أغنياء سعداء في أحد فنادق لندن أو باريس ؟

— نكون كمن يقرأ بالصينية أو اليابانية لجهلنا معاني هذه الحوادث وأسرارها ، إننا لا نقرأ إلا روايات الخادمات والخائطات إذا روعيت في كتابتها شروط الحشمة والأدب كي لا تضطر ربات الأولاد إلى نزعها من جيوب البنين والبنات وطرحها في النار

— ما قولك في هذه القصص الحقيقية البسيطة التي تصف بيوت الشعب وعاداته واصطلاحاته وميوله وأخلاقه وصدقه وبؤسه وسعادته وحوادث أفراده بلغة سهلة كلغته وتعابير ساذجة كتعابيره

— في اعتقادي يا سيدي أن هذه هي الكتب التي تستهوي العمال ولاسيما زوجاتهم وبناتهم ، لأن المرأة تمثل كل شعور الأسرة فمتى قرأت ربة البيت أو ابنته كتاباً ما ، فكأن الأب والأخوة قرأوه أيضاً ، فنحن أرواح المسكن ، فما نحبه تحبه حتى الجدران ، إن النفس تهذب في البيت أما العقل فيثقف في المدرسة

— يجب أن تكون حوادث هذه القصص حقيقية ، أليس كذلك ؟

— نعم لأننا نحيا الحياة الحقيقية ، والحقيقة هي شعرنا